بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس:

المبحث: سورة لقمان

الدرس: تفسير القرآن الكريم

كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

التاريخ: 2021 \\ م

أحبينا بمناسبة شهر رمضان أن نخصص وقتاً للقرآن الكريم شهر رمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن، فحري بنا كما نهتم به قراءة أن نهتم به تدبراً وفهماً، ووقع اختياري على سورة لقمان؛ لما تتضمن من مباحث اعتقادية وأخلاقية، وجاءت فيها وصية لقمان الحكيم عليه السلام لابنه في سياق تثبيت الاعتقاد بالخالق ونفي الشرك، فعلى هذا الأساس تعتبر هذه السورة مع قصرها من السور المهمة في تثبيت عقيدة الإنسان المؤمن، من مضاف إلى ما فيها من آداب في السلوك والعمل.

هذه السورة المباركة اتفق العلماء عدّها في الجملة من السور المكية، وإنما اختلفوا في أنه هل يستثنى من ذلك بعض آياتها أم لا؟ المشهور بينهم أنها بتمامها مكية، الذين مالوا إلى الاستثناء اختلفوا فيما بينهم، فالبعض استثنى الآية الثالثة فقط من هذه السورة، التي جاء فيها ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾¹ وبرهن على كونها مدنية باعتبار أن الصلاة والزكاة شرعتا في المدينة المنورة، خصوصاً الزكاة، الزكاة حكم من شؤون الدولة الإسلامية، ولم يكن هذا الحكم مشرعاً في بداية الإسلام، عندما كان مسلمون نقرأ قليلاً يخافوا أن يتخطفهم الطير من حولهم، والحصار الاقتصادي عليهم في برهة من الزمن، والصلاة شرعت في بداية البعثة على نحو الخصوص، ولم تشرع للعموم إلا في المدينة المنورة، في السنة الثانية أو الثالثة للهجرة، على تأمل في تحديد هاتين السنتين².

إذن دليل من استثنى هذا القول -وهو الحسن البصري- هو المضمون؛ لأن الرواية تتكلم عن الصلاة والزكاة، ولم يكن قد شرعاً في مكة المكرمة، فلا بد أن نحمل الآية على كونها مدنية.

¹ لقمان 4

² هذا يكون داخلاً في البحث التاريخي.

جماعة آخرون كعطاء استثنى آيتين دون هذه الآية المتقدمة، وهي الآية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين³. مكي ابن حموش وقد توفي في القرن للهجرة استثنى هاتين الآيتين مع الآية التي بعدهما⁴، يصبح ثلاث آيات. وفي مجمع البيان نسب استثناء ثلاث آيات إلى ابن عباس⁵. وهذا هو مختار الزمخشري في الكشاف⁶.

وستكلم عن هذا الأمر بشكل مفصل عندما نتعرض لهذه الآيات، هل أن المضمون يساعد على كون هذه الآيات مدنية أم لا؟ يأتي الحديث عنه تفصيلاً عند تناول هذه الآيات.

هذه السورة المباركة المشهور أن عدد آياتها أربع وثلاثون آية، وهو المثبت في المصاحف، ومن يستثني البسمة سوف تنقص آية من هذه السورة. لفت نظري في تفسيري الواحدي المعروف باسم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز⁷، يذكر أن عدد آيات هذه السورة تسع وخمسون آية⁸، وهذا غريب، ربما يكون خطأ من النساخ؛ لأن هذا الرقم لم يوجد في كل نسخ المخطوطات لهذا التفسير. والأمر في ذلك سهل.

ما هو الموضوع المحوري التي تدور حوله هذه السورة المباركة؟

نحن نعرف في علوم القرآن أن الطابع الغالب على السور المكية، هو طابع اعتقادي، بخلاف الطابع الحاكم على السور المدنية، في المدينة المنورة عندنا حكومة إسلامية، وجهاد، وتجارة، وعلاقات دولية، أهل الكتاب، أسرى، هذا هو الطابع الغالب على السور المدنية. أما في مكة المكرمة النزاع الفكري في القرآن الكريم كان مع أهل الشرك، مع المنكرين للتوحيد، والمنكرين لليوم الآخر ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾⁹ الحديث مع منكر لنبوة هذا النبي، من يتهمه بالسحر والشعر والجنون وما شابه ذلك، فالطابع العام للسور المكية هو طابع اعتقادي، فمن الطبيعي جداً أن هذه السورة من السور المكية، أو على أقل تقدير معظمها مكي، أن يكون موضوعها الأساسي أمر من

³ {لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد} (26) وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ

كلمات الله إن الله عزيز حكيم (27)}}

⁴ {مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (28)

⁵ مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص: 488

⁶ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج3، ص: 489

⁷ الواحدي توفي سنة أربع مئة وثمانية وستين (468 هـ)

⁸ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج2، ص: 847

⁹ الأنعام 29

الأمر الاعتقادية، وذكر قصة لقمان وصيته لابنه وهو يعظه وقعت في سياق تثبيت هذا الأمر الاعتقادي، هذه السورة المباركة لحنها في هذا الموضوع الاعتقادي مخاطبة القلب والفطرة، لا إقامة البراهين الاعتقادية والمنطقية، إثبات العقيدة بلسان الوعظ الذي يخاطب القلب والفطرة، وقد حرص القرآن الكريم في كثير من سوره وآياته على الموازنة بين مخاطبة العقل ومخاطبة القلب، والإنسان بحاجة إلى كلا الأسلوبين. الخطاب العقلي المحض الجاف قد لا يؤثر في كثير من الناس، بينما الخطاب الفطري القلبي أو فقل الخطاب العاطفي له تأثير يخلق جواً عند المعاند، عند المخاطب، يهيئه لمخاطبة عقله؛ لأن أكثر الموانع التي تنشأ عن أعمال العقل وإعمال الفكر التدبر والتأمل تنشأ من عقبة اسمها العاطفة، اسمها القلب ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾¹⁰ هذه أمور عاطفية وليست أمور برهانية، هذا الأمر العاطفي هو الذي منع الكثير من المشركين عن الاستماع إلى الوحي، والاستماع إلى ما يتلى عليهم من آيات باهرة ومن بينات واضحة، فكان القرآن بحاجة إلى استعمال هذا النمط من الأسلوب، أسلوب مخاطبة الوعي والقلب والعاطفة، ومشكلة البشرية الآن تكمن في عدم المزاجية والموازنة الحقيقية بين التطوير العقلي وتطوير العاطفي.

بالله عليك كي يتخرج طالب جامعي في اختصاص في فروع الطب، يدخل إلى المدرسة في سن الخامسة -مثلاً- يتخرج في سن كجراح في قريب الثلاثين، في ثلاثة عقود من الزمن ما تخرز في ذهنه، أي نوع من التطوير؟ هو التطوير العقلي، هل هذا التطوير العقلي هو الذي يجعل هذا الطبيب عندما يأتي إلى عيادته معدم ويريد أن يتعالج، هو الذي يحرك هذا الطبيب ويعالجه بدون مال؟ أبدأً، الذي يعالج، هو الذي يحرك الطبيب التطوير العاطفي، بل للأسف الآن كل الدول الواقعة في هذا المشكلة.

الآن حتى يأخذ الإنسان شهادة قيادة، في الدول التي تحترم نفسها، يجرون له دورة نظرية، يجرون له تدريب عملي، ثم يجرون له امتحان نظري، ثم امتحان عملي، ثم بعد ذلك يعطونه مجوز لمدة سنة، ويراقبونه، ثم بعد ذلك يعطونه مجوز لمدة طويلة.

هل هذه الأمور التي تقوم بها وزارة الداخلية أو الشرطة أو ما شابه ذلك هو الذي يجعل قائد السيارة يتوقف جانباً ليساعد عجزاً في الطريق أو أعمى يريد أن يمر؟ لا، إذن في كل المجالات وللأسف الشديد هذا الأمر سرى إلى حوزاتنا، نحن نشحن الطلاب بالفكر بالأدلة والبراهين، بأنواع الاستدلالات المنطقية، وربما في عشر دقائق من يوم الأربعاء نذكر له رواية أخلاقية، مع خطورة هذا الفكر الذي نشحن به الطالب، لذا السيد الإمام عليه السلام يقول: العلم هو الحجاب الأكبر. لأن هذا العلم يشعرك بالتفوق، يشعرك بالغرور، يشعرك بالكبرياء، وأول معصية حصلت عندما قرر الباري سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾¹¹ نشأت من هذا الغرور وهذا الكبرياء. فيكون هذا النوع من العلم لوحده من دون تطوير الطالب عاطفياً، ومن دون أن يدخل هذا التطوير كما يدخل التطوير العلمي والفكري والعقلي ضمن برامجنا، إذا لم يدخل هذا ضمن برامجنا فنحن نصنع بلعم بن باعوراء إلا من رحم ربي. فهذه السورة المباركة تناولت هذا الموضوع العقائدي، نفي الشرك، إثبات الخالق، بأسلوب يحمل في طياته الرحمة، العطف، عندما تأتي إلى وصيتي لقمان عليه السلام كيف قارن وقرن الاعتقاد بالخالق بإطاعة الوالدين وبإكرامهما، هذا فيه نوع من تحريك العاطفة عند الإنسان.

إذن هذا هو موضوع السورة المباركة.